

الفصل الرابع

فنون وآداب وعلوم

أما فنون وآداب وعلوم تلك البلدان التي فتحها العرب فقد انصرفت عنها الخلافة الأموية (٦٦٠ - ٧٥٠) إلى درس القرآن الكريم وضبط اللغة لشرحه واستنباط الأحكام منه ، وإلى تدوين الحديث مخافة ضياعه ، ونظرت إلى كل ما عداها في ريبة وحذر ؛ حتى إن عمر بن عبد العزيز - وقد انتقلت الفلسفة في أيامه من الإسكندرية إلى أنطاكية - استخار الله أربعين يوماً ؛ ليضع بين أيدي المسلمين كتاباً طيباً - نقله ماسرجويه من السريانية إلى العربية - يفيدون منه في إصلاح أبدانهم ومداواة عليلهم .

وقبل انقراض الخلافة الأموية بسبع سنين - نقل أول كتاب في الفلك عن اليونانية بعنوان كتاب عرض مفتاح النجوم ، ونسب إلى هرمس الحكيم ؛ ولئن لم يدرك الأمويون قيمة التراث اليوناني والهليستيني لقد تركوه وشأنه - فعلهم بالمكتبات والمراصد والمستشفيات - يعلمه النصراني والصابئة والفرس في مدارس شمالي أفريقيا والإسكندرية والقدس وبيروت وأنطاكية وحران والرها وجنديسابور ، ويحتفظون بأمهات كتبه في ترجمة معظمها سريانياً حتى القرن العاشر .

وكان العرب يقتبسون منه كلما دعته الحاجة إليه ؛ فنقل الحجاج الحركات من ضم وفتح وكسر عن السريانية ليضع حداً للحن ، وأفضى اتصاهاً بما كان لنصارى دمشق من تفكير فلسفي ولاهوتي وقانوني إلى نشوء المعتزلة ومن أتباعها معاوية الثاني ويزيد الثالث - والمرجئة ، وإخوان الصفا ، والقدرية ، وعلم الكلام .

وتأثر الفقه بالقانونيين اليوناني والروماني ، وكان القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٦ - ٧٤٩) الذي خلف أباه على بيت المال في خلافة هشام ، ثم اعتزل في دير القديس سابا بفلسطين - خير معبر لنقل تلك الأفكار إلى العربية في مصنفاته : منبع العلم وفيه بحث عن الفرق والمذاهب ، ومحاورة مع مسلم ، وإرشاد النصارى في جدل المسلمين ، وقصة برعام ويوصافات .

١ - الخلافة العباسية :

فلما قامت الخلافة العباسية (٧٥٠ - ١٢٥٨) على أنقاض الدولة الأموية بفضل الشعبية ، وعلى رأسها الفرس وأصبحت أمهات الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين ، إلا ثلاثة منهم جوارى - نقلوا عاصمتها من دمشق إلى بغداد أقرب الأمصار إلى فارس ، فاصطبغوا بصبغتها في : نظام الحكم وتوارثه ، وترتيب الخاصة والعامة ، وأبهة الملابس والمخالف والمجالس ؛ وولوا الفرس الوزارة والكتابة والحجابه والقيادة ، واستعانوا بالعناصر السريانية والفارسية والهندية والتركية واليونانية في إقامة الدولة ، وكان الفتح قد انتهى أو كاد ، واتسع العمران وتشعبت الفرق وأطلقت الحرية الدينية على أساس من الفنون والآداب والعلوم : فأنشأ المنصور مدرسة للطب وقرب علماء الفلك واقتنى الكتب من القسطنطينية وشجع على الترجمة . واقتدى بالمنصور خلفاؤه ، ما عدا الهادي والمهدي ، فشيّد الرشيد البيهراستان الكبير في بغداد على النمط الفارسي ، وأمر بنقل كتب العلوم على اختلافها ، وقام أول مصنع للورق في بغداد (٧٩٤) ، واتخذ المأمون بطاقته من علماء اليونان والسريان والفرس ، وبعث في طلب الأسفار العبرية واليونانية والفارسية من أرمينيا وسوريا ومصر . وسأل أباطرة القسطنطينية إعارته ليو الأرمني ، وكان مشهوراً بالرياضيات مقابل صلح دائم وألني دينار ، ثم جعل من شرائط صلحه معهم تزويده بمجموعة من الكتب النادرة . وأنشأ داراً للحكمة ، فانتقل إليها علماء حران والرها وجند يسابور ، ونقلوا إليها ما امتاز به التراث الإنساني في مدارس اليونان والرومان والشرق الأدنى وشمال أفريقيا فورثتها بغداد جميعاً . ثم ابنتي المراصد^(١) وتشبه به الأمراء والعلماء في جميع بقاع الإسلام ، واشتهرت فيها أزياجهم .

وقد شجع العباسيون على نقل ذلك التراث من متعدد اللغات إلى العربية والتصنيف فيه والإبداع منه ومن استجاب لدعوتهم :

(١) نصارى السريان ، ولم يكونوا غرباء عنه أو دخلاء عليه ؛ لأنهم توارثوه من علماء الشرق الأدنى وفيهم أسلافهم الذين تعاونوا هم واليونان والرومان على إرساء قواعده ونشر مبادئه وطبعه بالطابع الإنساني^(٢) ، ثم نقله السريان إلى لغتهم وأضافوا إليه وعلموه في مدارسهم . وكان معظمهم يجيد من اللغات : السريانية - ولها يومئذ قيمتها العلمية لأنها

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ج١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) الفصل الأول ، مهد الحضارة .

الآرامية الكنسية التي استوعبت الثقافات اليونانية والهليستينية والفارسية والعربية واليونانية ، فطفقوا ينقلون من اليونانية والسريانية إلى العربية بحسب حاجة الدولة إليها وعناية الخلفاء بها ورغبة المترجمين فيها .

ومن أشهر علمائهم : جورجيس بن بختيشوع (المتوفى ٧٧١) عميد أطباء جند يسابور ثم طبيب المنصور ، وقد اشتهرت أسرته في بغداد بالأطباء طوال قرنين ونصف القرن . وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى ٨٠٦) ناقل أمهات مصنفات جالينوس وأبقراط والمقالات الأربع لبطليموس ، وابنه أبوزكريا مترجم سر الأسرار المنسوب إلى أرسطو . ويحيى بن ماسويه (المتوفى ٨٥٧) دارس التشريح بتقطيع أجسام القردة .

وقد احتفظت العربية بترجمة سبعة كتب في علم التشريح فقدت أصولها اليونانية ، وترجم فرج بن سالم كتابه في الجراحة (البندقية ١٤٧١) ثم تُرجم كتابه النوادر الطبية (بولونيا ١٤٨٩) وكتب عنه في علاج العيون ماير هوف (عالم الإسلام ١٩١٦ - ١٧) وحنين بن إسحق (المتوفى ٨٧٧) رأس مترجمي دار الحكمة الذي نقل من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية ، منها كتاب النفس لأرسطو فنقله ابنه إسحق إلى العربية ، والنبات المنسوب إلى أرسطو (فترجمه الفرد دي ساراشل ١٢٠٠) وديوسقوريدس في العقاقير الطبية - أول من نقله تلميذه أسطفان بن سهل ناقل تسعة كتب لجالينوس - وبطليموس ، والعهد القديم من الترجمة السبعينية ، فكاد المأمون يفلس إذ كان يعطى وزن ما يترجم له ذهباً !

وصنف حنين كتباً كثيرة منها التعليق على الإيساغوجي ، وقد ضم إلى مجموعة مدرسة سالرنو الطبية وينسب إليه كتاب المقالات العشر في العين الذي عد أقدم كتاب جامعي لأمراض العين ، وقال ليكلر في مؤلفه : كان أرجح شخصيات القرن التاسع عقلاً وأنبها خلقاً . . ونقل ابنه إسحق (المتوفى ٩١٠) عدداً وافراً من كتب أرسطو وشروح إسكندر الأفروديسي ذات الأثر البالغ في الفلسفة الإسلامية ، وأرشميدس وأصول الهندسة لإقليدس وغيرهم . وحذا حذوه ابن أخته حبش بن الحسن الذي ترجم كل كتب جالينوس . ثم عيسى بن إبراهيم ، وقسطا بن لوقا البعلبكي (المتوفى ٩١٢) وقد نسب إليه صاحب الفهرست تأليف أربعة وثلاثين كتاباً بينها كتاب الحيل لهيرون الإسكندري ، فلم يسلم منه سوى النص العربي (وقد ترجمه كارادي فو) ومن مولفاته الأسطرلاب الكروي والعمل بالكرة ذات الكرسي ، وقد ترجمت جميعها ، وكتاب الفلاحة اليونانية (طبع في مصر ١٢٩٣ هـ) . وسرجيوس

الراسعنى أقدر المترجمين من اليونانية إلى السريانية ، ولما ترجم الحجاج بن يوسف بن نصر أصول أقليدس والمجسطى - ضمن الأخير النص السريانى لسرجيوس ، وقد عد هؤلاء أشهر من نقل إلى العربية (٣) وضاعت منقولاتهم على الحصر (٤) .

(ب) الصابئة ، وجعلت الحرية الدينية الصابئة - وهى فئات منها المنديون المعروفون بنصارى القديس يوحنا ، وسكان الأغوار على مصب نهر الفرات (٥) ، وأساتذة مدرسة حران وكانوا يكتبون بالسريانية - تشارك فى النقل والتحقيق والتصنيف ويشتهر بينها علماء من أمثال :

جابر بن حيان (المتوفى ٧٦٥) وقد أسلم وعد أشهر الكيماويين المسلمين ، وأول من اصطنع التجربة العلمية ، وصنف فى الأقرباذين ، وكان لمؤلفاته ، والمشهور منها ٢٨ كتاباً (نشرت فى المجموعات الكيماوية ، جنيف ١٧٠٢ وبال ١٨١٠ و ١٨٥٠) - أثر عميق فى أوروبا وآسيا . وثابت بن قرة (٨٣٦ - ٩٠١) رئيس نقله حران - وقد ترجم مصنفاته فيادمان وفرانك (١٩١٢ - ٢٢) ، وحققت كلير بورردو تنقيحه ؛ ترجمة اسحق بن حنين لأصول أقليدس (١ ركيون ١٩٣٧) وإليه وإلى ابنه سنان (المتوفى ٩٤٣) وحفيديه : إبراهيم (المتوفى ٩٤٦) وثابت (المتوفى ٩٧٣) وابن حفيده أبى الفرج - يرجع فضل نقل كتب العلماء : أبولونيوس وأرشميدس وأقليدس إلخ فى الرياضيات والفلك وتنقيح الترجمات السابقة والتصنيف فى تلك العلوم .

والبثانى (٨٥٨ - ٩٢٩) وهو صابئى اعتنق الإسلام ، وقد أصلح كتب بطليموس ، واهتمدى إلى الكثير من المبادئ فعد أعظم الفلكيين المسلمين ، وبلغ بحساب المثلثات الغاية . (ج) علماء الهند ، وكان لتشجيع العباسيين أثره فى تدعيم العلاقات الثقافية بين الإسلام والهند . فوفد على المنصور رحالة من الهند (حوالى ٧٧١) بمقالتين :

الأولى فى الرياضيات ، وينقلها دخلت الأعداد والنظام العشرى والصفى الحساب العربى ، وكان الراهب سفيروس سونحت رئيس دير قنشرين قد ترجم وشرح كتاب التحليل

(٣) ابن أبى أصيبعة طبقات الأطباء جا ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٤) ابن التديم ، الفهرست ، ص ٤٠٣ - ٤٠٥ .

الدكتور ماكس مايرهوف ، التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية . نقله إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوى (القاهرة ١٩٤٠) .

(٥) البقرة : ٦٢ ، والمائدة : ٧٣ ، والحج : ١٧ .

لأرسطو وصنف رسائل في الفلك والجغرافيا ، فذكر الأرقام الهندية لأول مرة (٦٦٢) التي عرفتها أوروبا فيما بعد بالأرقام العربية والأخرى السند هند ، وهي في الفلك فنقلها الغزاري ، وهو أول مسلم وضع زيجاً استند إليه الخوارزمي في زيجه الشهير ، ثم نفعه مسلمة المجرطي . ونرح نفر من علماء الهند إلى بغداد أشهرهم : منكه ، وابن دهن ، فنقلا مع غيرها عن السنسكريتية : أقدم موسوعتين في الطب لسوشوترا وتاراكا ، وكتبا في أمراض النساء ، والطب البيطري والسموم والجراحة ، ومصنفات في الفلك والموسيقى والكيمياء الصناعية ، مثل : التقطير (والتبخير) واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة ، فأربت مترجماتهم على ثلاثين كتاباً .

واستهوت الهند علماء المسلمين رحالة وجغرافيين ومؤرخين من أمثال : ابن حوقل ، وابن خرداذبة ، وسليمان العراقي ، والنيبوعى ، والبيروني ، وابن بطوطة ، والسمرقندي ، والمعبري ، فوصفوا مافيا من صناعة الصياغة والصباغة والعاج والبارود والأسمنت ومازال كتاب البيروني - تحقيق مالهند - خير ما كتب عن ثقافتها بعد نحو ألف سنة . ونقلت أحاديث وافرة عن الهند وجزيرة سرنديب (سيلان) ومليبار في كتب الأحجار كأزهار الأفكار للتيفاشي ، ورسائل القزويني ، وكتب الدمشقي ، والأكفاني ، وغيرهم ، فدخلت اللغة العربية مفردات سنسكريتية عديدة للدلالة على الأحجار الكريمة والأفاويه والعقاقير والأصبغ والنبات والفواكه والحيوان ، وتأثر الأدب العربي بأدب الهند في الأمثال والحكم والقصص والتصوف .

(د) الشعبية ، ومعظمها فارسي الأصل : عكفت على التأليف أكثر مما أخذت بالترجمة وكانت فئات : أقلها تنقم على العرب إضعافهم لغاتها وأديانها واستنثارهم بالسلطة والثروة من دونها فسعت إلى التشكيك والإلحاد ، وأغلبها قبلت الإسلام دينا والعربية لغة ، فأرادت التمكن لها بما لديها من ثقافة ، وبعضها طمعت في عطايا العظماء فنقلت وصنفت . وقد تجاوز فضل الإسلام في إظهار العبقريات المتنوعة لأصول متعددة من الشرق الأدنى إلى آسيا وأفريقيا وبعض أوروبا والشرق الأقصى ، فن علماء اللغة : سيبويه ، ومن الشعراء : أبو نواس ، وابن الرومي ، ومن الأطباء : علي الطبري ، والرازي ، ومن العلماء : الجاحظ ، والبيروني ، ومن الفلاسفة : الفارابي ، وابن سينا ، وأول علماء الاجتماع : ابن خلدون ، وأعظم الجغرافيين ياقوت الحموي وغيرهم كثير ، على حين انحصرت الترجمة من الفارسية بابن المقفع (المتوفى ٧٥٧) ناقل تاريخ الفرس وكليلة ودمنة - ولما فقد أصله

السنسكريتي وترجمته بالفهلوية أصبحت الترجمة العربية أصلاً ترجم إلى نحو أربعين لغة -
وابنه محمد مترجم أربعة كتب يونانية الأصل من الفارسية إلى العربية وآل نوبخت وبعض
المتشبهين بهم ، فما زاد ما نقلوه على عشرين كتاباً في التاريخ والسير والأدب والحكم .
وهكذا نقل النقلة عن اليونانية والسريانية والهندية والفارسية أمهات كتب الطب والفلك
 والرياضة والكيمياء والجغرافيا والأدب - ما خلا الأدب اليوناني الذي اكتفى منه توافيل
الرهاوي (المتوفى ٧٨٥) منجم الحليفة المهدي ، وكان على مذهب موارنة جبل لبنان بترجمة
كتاب هوميروس على فتح أيلون إلى السريانية بقاية ما يكون من الفصاحة ، على حد قول
ابن العبري ، كما ترجم من السريانية كتاباً لجالينوس وألف كتاب الكنوز ، ثم نظم سليمان
البيستاني إلياذة هوميروس شعراً بالعربية في ١١ ألف بيت (القاهرة ١٩٠٤ -) والموسيقى
وأساليب الحياة المتمدنة .

ولم تكن حاجة الدولة إلى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتصوف أقل من حاجتها إلى
الطب وغيره من العلوم ، فنذ الخلاف على الخلافة والتحكيم بين معاوية وعلى ، وقيام الفرق
والشاف الأعاجم حولها - طفق النقلة يتقلون إلى العربية مذاهب الهنود والفرس واليهود
والنصارى ؛ مما جعل ازدهار الثقافة الإسلامية تطوراً مركباً لعناصر وافرة من أصول متعددة :
كأثير الزردشية واليهودية في تعريف الحشر والحساب ، واعتناق مذهب الأفلاطونية الحديثة ،
والتوفيق بين الدين والفلسفة ، ونظريات النصرانية في صفات الله والوحي والعقل وتصور
المهدي المنتظر ومصير مرتكب الكبائر ،

وجمع الصوفية بين الإسلام والبوذية والأفلاطونية الحديثة والأوغسطينية رداً على ترف
الناس ومجونهم ، - وبدأ الأدب الديني بتأثيرات النصرانية السريانية - ثم أخذ المؤلفون
المسلمون أكثر معارفهم عن النصرانية وبيزنطية في عهود الجاهلية عن المصادر السريانية -
والموسيقى بالألحان السامية ثم بالتقاسم الهليستينية والأنغام الفارسية والهندية ، واقتباس الفنون
من الحضارات الأخرى ثم تميزت بأساليب إسلامية صرف ؛ حتى قيل : إن حضارة الإسلام
في بغداد من صنع الفرس والسريان والهنود ؛ لأن العرب كانوا يومئذ وراث بدواة وجهالة ،
وهؤلاء وراث ملك وحضارة وفلسفة وعلم (٦) !

وأدخلت تلك الحضارة على اللغة العربية المصطلحات الزراعية من الأرامية والإدارية من
الفارسية واليونانية ، والجدلية من العبرية والسريانية ، والعلمية والفلسفية من اليونانية ،

(٦) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٣٩ .

فبلغت نحو: ٩٨٨ كلمة آرامية ، و ٨٥٤ فارسية ، و ٤٧٢ يونانية ، و ٦٧ لاتينية ، و ٤٢ عبرية ، ثم ٣٢ تركية و ١٧ إيطالية ، و ١٢ فرنسية ، و ٣١ من لغات أخرى أصبحت بها أغنى اللغات السامية ، وحلت محل الفارسية والسريانية والقبطية واليونانية واللاتينية من فارس إلى جبال البرانس ، وتجاوزتها إلى غيرها من لغات أوروبا ، وحملت الدول الإسلامية على استبدال حروفها بالحروف العربية : كالتركية - حتى عهد مصطفى كمال - والإيرانية ، والكردية ، والأفغانية ، وما تفرع منها . وفي الهند : الهندوستانية والكشميرية ، والداخينية ، والكورازية ، والبنالية ، والبنجابية ، والمالتانية ، والسندية ، والتاميلية ، واللهندية ، والمليالامية . وفي تركستان : الأوزبكية ، والجياكاتائية، والكراغزية ، والكشغرية ، وفي جاوه : الجاوية ، والسندانية . وفي مالازيا : المالائية وفي جزائر سولو : السولائية . وفي أفريقيا : القبائلية ، والشلهامية ، والسواحلية ، والبيارية ، والغولية ، والهوسائية ، والغينية ، والفيداجية ، وفي أوروبا : القازانية ، والنوكائية والكوموكية^(٧) - بعد أن استوعبت العربية التراث الإنساني قروناً طويلة :

ذلك أنه أعقب عصر ترجمة تلك الفنون والآداب والعلوم وتفسيرها والتعليق عليها بأقلام علماء الفرق والفلاسفة والمتصوفين - عصر إنتاج لإصلاح أخطائها واستكمالها، ووضع مذهب الاستقراء والقياس والتثليل لها ، والابتكار منها في تصانيف كانت أكبر دعائم النهضة الأوربية مكنتها - طوال ثلاثة قرون - من الرق والتطور والتكامل ، ورجعت إليها جامعاتها حتى القرن الثامن عشر ، وما زال مستشرقوها يتناولونها بالتحقيق والترجمة والتأليف ، فدخل علماءها تاريخ الفنون والآداب ، ولاسيما العلوم والفلسفة والمنطق دخولاً فذاً : فعد الكندي والفارابي ، وابن سينا أشهر المتقدمين في الترجمات الفلسفية^(٨) ؛ ولاغرو فالكندي (المتوفى ٨٥٠) أول فيلسوف عربي اهتمدى إلى الفلسفة اليونانية ، وحاول التوفيق بينها وبين الإسلام ، وصنف وشرح كثيراً سلم أقلها ، ومن رسائله : رسالة الموسيقى (برلين) والأدوية المركبة بترجمة لاتينية (ميونيخ) والمد والجزر (أكسفورد) واختبارات الأيام (ليدن) وتحويل السنين (الأسكوريال) ، وقد جعله روجر بيكون في كتابه المراثيات مع ابن الهيثم في مستوى بطليموس ، ورفعه كروانو الايطالى إلى مرتبة الاثنى عشر عبقرياً منذ ابتداء العالم حتى القرن السادس عشر .

والفارابي (المتوفى ٩٥٠) الركني الأصل صنف نحو أربعين كتاباً أشهرها : فصوص

(٧) الأب رفايل نخلة اليسوعي ، غرائب اللغة العربية (المظلة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠) .

الحكم ، وإحصاء العلوم ، والتعريف (نسخة خطية في الأسكوريال) ومختصر النواميس ، وكتاب الموسيقى الكبير ، والمدينة الفاضلة وكان أول كتاب عربي في العلوم السياسية ، تلاها في الغرب كتاب الأمير (في أواسط القرن السادس عشر) وابن سينا (المتوفى ١٠٣٧) الفارسي الأصل ، وأعظم فلاسفة الإسلام وأغزرهم علماً قد أربت مؤلفاته على المائة (٩) خيرها تسعة في الطب والفلسفة والمنطق والطبيعات والرياضيات والفقہ والفلك طبعت مجموعة منها في فيينا (١٤٩٥) ، وحل كتابه القانون بعد ترجمته إلى اللاتينية محل كتب جالينوس ، والرازي ، وطبع خمس عشرة طبعة لاتينية وواحدة عبرية (١٤٧٣ - ١٥٢٧) ، ثم اعتمدت المطابع ترجمة أندريا الباجو ، ونشرت النص العربي في رومة (١٥٩٣) ، واستمر مرجعاً في مونيخ ولوفان إلى القرن السابع عشر ، ومازال لابن سينا صورة تزين القاعة الكبرى في كلية الطب بجامعة باريس .

أما فلسفته فقد اعتمد عليها توما الأكويني ، وألبر الكبير ، وروجر بيكون الذي وصفه بأنه أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو وجدد طبعتها كامبائلا (فرانكفورت ١٦٣٠ ، باريس ١٦٣٦) وشرحها الدكتور صليبا في رسالته ، عنه . والغزالي المتوفى (١١١١) مؤلف تهافت الفلاسفة ، ومقاصد الفلاسفة وإحياء العلوم إلخ ؛ مما كان له شديد الأثر في مجادلة المشائين : شريين وغربيين .

وفي الطب اشتهر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٦) بأنه أعظم أطباء عصره ، فترجمت أوروبا إلى اللاتينية والعبرية ثم إلى سائر لغاتها كتبه : المنصوري ، والحاوي - وهو في عشرين مجلداً ، ترجمه فرج بن سالم (نابولي ١٢٧٩) ، وجعل أحد الكتب التسعة التي كانت تتألف منها مكتبة كلية الطب في جامعة باريس ، وطبع خمس مرات في أوروبا (١٤٨٦ - ١٩٠٣) ومازال للرازي صورة إلى جانب ابن سينا تزين قاعتهما - والترياق ، ورسالة الجدرى والحصبة ، وهي أولى الدراسات للأمراض المعدية ، وقد عدد الدكتور ماكس مايرهوف لمصنفها ثلاثاً وثلاثين ملاحظة سريرية . وعلى بن عباس (المتوفى ٩٩٤) صاحب كتاب الملكي (ترجمه إسطفان الأنطاكي إلى اللاتينية ١١٢٧ ، وطبع في البندقية ١٤٩٢ وفي ليون ١٥٢٣) ثم ترجم القسم النظري منه قسطنطين الأفريقي (وابن بطلان (المتوفى ١٠٥٢) مؤلف كتاب تقويم الصحة (ترجم إلى اللاتينية ١٥٢٨ ثم إلى النمسية) وابن جزلة (المتوفى ١١٠٠) مصنف كتاب تقويم الأبدان (ترجم إلى اللاتينية في ستراسبورج ١٥٣٢) .

وذكر تاريخ الطب ابن الهيثم بأنه أول من كتب في أقسام العين ورسمها ، ووضع

المصطلحات العلمية لبعضها فأخذت أوروبا عنه : الشبكة القرنية والسائلين المائي والزجاجي ؛ كما عولت جامعاتها على كتاب تحرى المناظرة للخازن ، ثم نشره روسرمتاً وترجمة (بال ١٥٧٢) ، وترجمت تذكرة الكحالين لعيسى بن يحيى إلى العبرية واللاتينية مرتين ، واستمرت أوروبا في تدريسها حتى القرن الثامن عشر.

وفي الرياضيات أرجع كرينسكى تقدمها وإيجاد التكامل والتفاضل بينها إلى المبادئ التي وضعها علماء اليونان ، وإلى الأساليب المبتكرة التي عالجها بها علماء الهند ، وإلى درس العرب لها وإصلاح بعضها والإضافة إليها إضافات هامة دلت على تضج في أفكارهم وخصب في عقولهم (١٠)

وقد كان الخوارزمي (المتوفى ٨٥٠) أبرز عالم في تاريخ الرياضيات فوضع زيج الشهر (وقد ترجمه بتقيق الجريطي أدلرداوف باث ، ١١٢٦) ، وصنف رسالة في حساب الجبر والمقابلة (ترجمها دي كريمونا ولما فقد أصلها سلمت ترجمتها باللاتينية وظلت تدرس في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر)

واشتهر ابن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٨) بتبوعه في الهندسة والرياضيات وقد ترجم دي كريمونا رسالته في الشفق (لشبونة ١٥٤٢) وبارمان رسالته في الضوء (لينزيج ١٨٨٢) وعزا نلليو إلى أحكام الشريعة الإسلامية حمل الفلكيين على البحث عن المسائل العويصة المتصلة برؤية الهلال وأحوال الشفق ، فبرزوا في ذلك وأتوا بحسابات وطرق لم يسبقهم إليها سابق من الهنود أو الفرس (١١)

وقد أمر المتوكل (٨٦١) الفرغاني بعمل مقياس للنيل ، ومن أهم كتبه : المدخل إلى علم هيئة الأفلاك الذي ترجم إلى العبرية وترجمه دي كريمونا إلى اللاتينية (١١٣٥) ، وكان أبو معشر البلخي (المتوفى ٨٨٦) أول من اهتدى إلى حقيقة طلوع الفجر وغيابه وأثرهما في تنظيم المد والجزر ، فترجمت جميع كتبه إلى اللغات الأوروبية .

وفي الكيمياء أكد مؤرخها هوليارد أن الكيمياء الإسلامية أثرت في الهند أضعاف ما تأثرت بها من قبل (١٢) وقد اقتبس علماء أوروبا في العصر الوسيط الكيمياء عن العرب ، وعزا الرهبان مصنفاتهم في الحجر السحري إلى جابر بن حيان الكيمياوى العربى الشهير لينجوا بأنفسهم من غضب المترمتين والعامه .

(١٠) كرينسكى : محاضرة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (نوفبر ١٩٢٢) .

(١١) نلليو ، علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ص ١٢ .

وفي العلوم : عد البيروني (المتوفى ١٠٤٨) أعظم بجماعة بين العلماء المسلمين وأكثرهم ابتكاراً في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والتاريخ (منها مخطوطات في مكتبات باريس وبرلين والأسكوريال) وقد عرفه زاخاو ، بعد ترجمته لمصنفه الآثار الباقية (ليزيج ١٨٧٨) وتحقيق ما للهند (لندن ١٨٨٧) بأنه أعظم عقلية عرفها التاريخ .

كل هذا حمل سارتون مؤرخ العلوم على القول : إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون فالفارابي أعظم الفلاسفة ، وأبو كامل ، وإبراهيم بن سنان أعظم علماء الرياضيات ، والمسعودي أعظم الجغرافيين ، والطبري أعظم المؤرخين (١٣) . ولو استرسل سارتون لذكر مئات الأعلام في مختلف ضروب العلم ، بله الكتاب والشعراء وأصحاب الفنون ، وعشرات آلاف المصنفات النفيسة التي خلفوها ، فهل انحصرت الثقافة العربية في الشرق ووقفت عنده ؟

٢ - الأندلس

راقت العرب الإقامة في الأندلس ، ووطنوا أنفسهم خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ، فافتنوا في إتقان دورهم وتنسيق حدائقهم وتنظيم دساكرهم ، لتتسجم هي ، وماشيد الخلفاء والأمراء من مئات المساجد والقصور والأبراج والحمامات والحدائق ، فجاء وليد الفطرة والبيئة أكثر منه جلباً من الشرق كمعظم آثارهم العقلية . وأدخلوا إلى الأندلس الأساليب الزراعية التي عرفوها في الشرق ، وجاءوها بأشجار وأغراس أزاهير ويقول من دمشق ومصر وأفريقيا والهند .

وعنوا بالصناعات على اختلافها كالحياكة والدباغة والمعادن والسلاح والنقش في الخشب والزجاج والحزف ؛ حتى إذا تم لهم بناء الأندلس السياسي والاقتصادي والاجتماعي سعوا إلى التشبه بالعباسيين في إرساء ملكهم على أسس من الفنون والآداب والعلوم : فأسسوا المدارس وجسوا الأموال عليها ، وخرجوا في طلب الكتب إلى الشرق وملثوا مكتباتهم الخاصة منها ما خلا خزائن بعض المساجد ، لا كما قال الغزيري : إن مكتبات قرطبة العامة بلغت السبعين عدداً (١٤)

ووفد على قرطبة ثم على غيرها من حواضر الأندلس أهل الفن والأدب والعلم من الشرق والغرب ، وعنوا بتفاصيلها تفسيراً واقتباساً وتصنيفاً ، واختلفوا إلى مجامع كمجامع اليوم

للجدل والمناظرة ، وجلست الأميرات للشعراء ووازنَ بينهم .

وأقبلت الأندلس على تلك الثقافة التي تميزت بتعدد مبدعيها : عرباً وبربراً ومستعربين ويهوداً ونصارى في إدراك وحب وسماع إلا ما حرّمها الفقهاء فازدهرت فيها ازدهارها على الفرات . وفي ذلك يقول دوزي الذي وقف جل نشاطه على الأندلس ، واشتهر بميله للعرب : إن كل إنسان تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة يوم خلت أوروبا ممن يلم بها ما خلا الطبقة العليا من القسيسين (١٥) .

أما الفلسفة والمنطق والفلك والكيمياء والرياضيات فقد كانت أحب العلوم إلى الخاصة والمجدين ، وأقبلتها لدى العامة والرجعيين . وكان الخلفاء من علمائها فريقين : فريقاً يقرّبهم ويجزل عطاءهم ويوليهم كبار المناصب . وفريقاً ، وهو الأكبر ، ينكهم بإحراق كتبهم واستصفاء أمواتهم ورجمهم ، فيهربون منه إمساكاً على حياتهم ! (١٦)

وكان فقهاء الأندلس المالكيون حرباً على تلك العلوم وعلى الغناء والموسيقى وبعض أطرزة البناء (١٧) فأحرقت على أيديهم كتب خليل بن عبد الملك ، وإحياء العلوم للغزالي ، ومعظم كتب ابن رشد . وفر الحجاب ، وابن مسرة وأتباعه ، وعبد الرحمن ابن زيد الملقب بأقليدس الأندلس . حتى إذا انقرضت دولة بني أمية ، وصارت الأندلس إلى ملوك الطوائف ، وبيعت كتب القصور - انتشرت العلوم على اختلاف أنواعها انتشاراً واسعاً :

كان عبد الرحمن الثاني أول من بدل حياة البلاط من خشونة إلى ترف باستقدامه زربابا الشاعر من بغداد فأدخل الغناء والموسيقى الشرقيين إلى الأندلس . وتألقت في بلاطه الشعراء : يحيى بن الحكم بن الغزال - وقد نشر فابريسيوس *Fabricius* تقرير ابن الغزال عن سفارته إلى ملك النورمان في أعمال مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٢ ، وتمام ابن علقمة ، وحسانة التيمية .

وقال عبد الله الشعر ، فشاع بين الناس وظهر فيه : القلظاط ، وعبيد يس ، وسعيد ابن جودي شاعر الفروسية ، ومقدم بن معافى القبري الضرير مبتدع الزجل والموشح . وشمل عبد الرحمن الناصر الثقافة برعايته فاشتهر الشاعران : ابن هانئ ، والزبيدي ، والمؤرخون : الرازي ، وابن القوطية ، والحشني . وصاحب الموسوعة : ابن عبد ربه . ورائد الفلسفة : ابن مسرة - الذي سبق أن رأس حلقة في جبل العروس (٩٠٠) فنشأت على غرارها حلقات في المدن الإسبانية حتى القرن الثالث عشر - وعالم الرياضيات والفلك أحمد

Dozy, Hist. des Musulmans en Esp. t II, p 184.

(١٥)

Et. Quatremere, Melanges d'hist. et de phil. orient. p 5.

(١٦)

Cl. Huart Hist. des Arabes t II, p 157.

(١٧)

بن نصر ، ومسلمة بن القاسم ، ولكنها تسترا على بحثها خوفاً من الفقهاء والعامه . وترجم كتاب ديوسقوريدس في العقاقير الطبية^(١٨) .

وقدم الحكم الثاني العلماء والفلاسفة والرياضيين والفلكيين ، فظهر مذهب مسلمة الجريطي الذي أدخل رسائل إخوان الصفاء في الأندلس ، واشتهر ابن صلا الله القرطبي بآرائه المعتزلية المنحرفة ، وازدهر الطب بفضل أبي القاسم الزهراوي صاحب التصريف لمن عجز عن التأليف ، في جزأين ، جمع الآخر معارف الجراحة في عصره ، وقد ترجم إلى اللاتينية ، وصدرت منه طبعات متعددة (البندقية ١٤٩٧ ، بال ١٥٤١ ، أكسفورد ١٧٧٨) ؛ وظل مرجعاً في مدرستي الطب في سالرنو ومونبلييه^(١٩) ، وعلم النبات على يد ابن جلجل (المتوفى ٩٨٢) ؛ كما احتفى الحكم بوفادة أبي علي القالي الذي خلف أثراً كبيراً فيمن عاصره أوجاه بعده من أهلها .

أما ملوك الطوائف فقد تنافسوا - وكان معظمهم على جانب كبير من الثقافة - فيما بينهم في ميادين الفنون والآداب والعلوم فنبغ في غرناطة : أبو الفتح الجرجاني ، وصمويل بن نجدة . وفي بنسية : ابن وهبون ، والوقشي ، وابن خفاجة ، وابن سيده صاحب كتاب المخصص . وفي بطليوس : جمع المظفر بن الأقطس مواد موسوعته المظفرية . وفي أشبيلية : كان المعتضد والمعتمد وزوجته اعتماد ووزيره ابن عمار من أعلام الشعر .

قربوا ابن حصن ، وابن زيدون ، وابن اللبانة . وفي قرطبة : استوزر ابن حزم (المتوفى ١٠٧٤) مؤلف طوق الحمامة ، والحضال ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، والمقتبس في تاريخ الأندلس . وفي طليطلة : اشتهر الزرقاني (المتوفى ١٠٨٧) بالفلك - الذي عاون على وضع الزيج الطليطلي ، فأثرت ترجمته بعد فقد أصله في أوروبا حتى عهد كوليس - وابن اليغونش بالفلسفة والرياضيات ، وابن الوافد ، ومحمد التيمي بالطب ، وابن أرفع رأسه بالشعر ، وابن غيث بتحرير العقود . وصاعد الطليطلي والحجاري بالتاريخ .

(١٨) أرسل أرمانوس الثاني إمبراطور بيزنطية سفارة إلى عبد الرحمن الناصر (٩٤٨) ومن بين هداياها مخطوط من كتاب ديوسقوريدس في العقاقير الطبية - الفصل الأول ، مهد الحضارة ، ثم الفصل الرابع ، فنون وآداب وعلوم ، وكان مشتملاً على صور النباتات . ولما لم يكن في قرطبة من يعرف اليونانية فقد سأل الناصر الإمبراطور أن يبعث إليه عارفاً بها وباللاتينية ، فأرسل الراهب نيقولاس (٩٥١) ، فحدد أنواع النبات المذكورة في ذلك الكتاب بمعاونة ابن جلجل وحسداى بن شبروط وغيرهما من العلماء . وقد كان لاطلاع أهل الأندلس على الكتاب أثر حاسم في دراسات الطب والنبات والتصنيف فيها من بعد .

(١٩) جاريه دل ريال - Ed. Garcia del Real : تاريخ الطب في إسبانيا (مدريد ١٩٢١) .

وفي سرقسطة : كان المقتدر والمؤمن من أنصار الفلسفة والرياضة والفلك . وقد صنف المؤمن كتاباً في الفلك ، ونزل بسرقسطة الفيلسوفان ابن جبيرول ، وابن باجة وغادرها الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك إلى الاسكندرية (١٠٨٩)

وفي المرية : مهّد الوزير أحمد بن عباس للعلم والأدب بمكتبته التي ضمت أربعائة ألف مجلد ، فلجأ إليها من الشعراء : ابن شرف البرجى ، وابن الحداد ، وعاش فيها أبو عبيد الله البكرى (المتوفى ١٠٩٤) أحد طلائع رواد الجغرافيين صاحب المسالك والممالك .

أما الدويلات الأخرى فقد اقتصر ملوكها على الاحتفاظ بما لديهم من فن وأدب وعلم أو الترحيب بمن يفد عليهم من أصحابها .

وفي عهد المرابطين طفق الشعب يحتفل بأعياد غير إسلامية ويسير أعماله على التقويم الغربى ، ويلبس أزياءه ويتحدث بلغته ، فلم يفت ذلك في عضدهم ، فجمع أبو يعقوب يوسف في داره حلقة من الشعراء والعلماء ، وأقام بعضهم ترجمة على كتب أقليدس وأرسطو ، وولى غيرهم كبار المناصب كابن رشد الذى جعله قاضى القضاة بأشبيلية .

ومن اشهر في عهد المرابطين : ابن خاقان ، وابن بشكوال ، والضى ، وابن خير ، وأبو أحمد الغرناطى ، وابن مسعود ، وابن سهل الضرير ، وجبير ابن أفلح الأشبيلية ، وأبو الصلت الدانى ، وسفيان الأندلسى ، وأبو العلا بن زهر ، وابن أبى الحصالة ، وعياش بن موسى ، والرشاطى ، وابن الباذش ، وأبو بكر بن العرى .

ومن اشهر في عهد الموحدين من الشعراء : أبو جعفر بن سعيد ، وعبد الرحمن السهلى ، وأبو الحسين محمد بن جبير ، وأبو البقاء الرندى .

ومن شراح الأدب : عقيل بن عطية ، والشريشى .

ومن الرحالة : أبو محمد حامد المازنى الذى بلغ روسيا (١١٣٦) .

ومن الفلكيين : البطروجى (المتوفى ١٢٠٤) مؤلف كتاب الهيثة .

ومن الجغرافيين : ابن جبير (المتوفى ١٢١١) صاحب كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار

القديمة والناسك . ومن المؤرخين : ابن الأبار (المتوفى ١٢٦٠) .

ومن علماء الطب : ابن زهر الوزير مصنف كتاب التيسير في مداواة والتدبير ، والغافقى

(المتوفى ١١٦٥) جامع نباتات إسبانيا وأفريقيا بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، ومؤلف

كتاب الأدوية المفردة ، وابن العوام الأشبيلية (المتوفى ١١٨٥) صاحب كتاب الخلاصة

الأندلسية . وهو خير ما صنف في الزراعة يومئذ .

ومن علماء النبات : ابن البيطار (المتوفى ١٢٤٨) أشهر علماء النباتات والصيدلة في الإسلام ، وقد جمع في كتابيه : الجامع في الأدوية ، والمغنى في الأدوية معارف اليونان والعرب واختباراته الشخصية ، فعدد له الذكور ما يهوف ١٤٠٠ عقار منها ٤٠٠ لم يعرفها اليونان ، وقد ترجم المغنى إلى اللاتينية وطبع في كرمونا وهو خير ما صنف في العقاقير يومئذ .
ومن الفلاسفة : ابن باجة (المتوفى ١١٣٨) وقد رمى بالزندقة ، ومن مؤلفاته : تدبير المتوحد الذى حفظ مختصراً بالعبرية ، (نشر قسماً منه مونك ، ١٨٥٧) ورسالة الوداع ، وهى مشروحة بالعبرية ، ومجموعة فى الفلسفة والطب والطبيعات (منها نسخة فى برلين وأخرى فى أكسفورد) .

وابن طفيل المراكشى (المتوفى ١١٨٥) صاحب كتاب أسرار الحكمة المشرقية ، وقصة حى بن يقطان (منها مخطوط فى أكسفورد) وقد تأثر بها فلاسفة العصر الوسيط ، ونشرت وترجمت بلغات عديدة .

وابن رشد (المتوفى ١١٩٨) خير شارح لأفلاطون وأرسطو وقد ذكر رينان له ثمانية وسبعين كتاباً منها تهافت الفلاسفة ، وتهافت التهافت ، والمقولات ، والشروح على أرسطو ، وبعضها محفوظ بترجمات عبرية أو لاتينية منقولة عنها ، والعقل والمعقول ، ومقدمة الفلسفة فى اثنتى عشرة رسالة (الإسكوريال) والكليات فى الطب الذى طبع فى أوروبا مراراً . وقد سيطرت فلسفته على جميع مراكز الثقافة فى أوروبا حتى القرن السادس عشر ، على الرغم مما لاقته من أهل السنة فى الأندلس ، ثم من علماء التلمود ، ثم من بعض رجال الدين النصارى ، وقد صنف فيه رينان كتاباً بعنوان : ابن رشد والرشدية (باريس ١٨٥٢ - ٦٩) وقال فيه : ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها . وقال فيه كارا دى فو : كان شرحه لأرسطو أوفى شرح فى العصر الوسيط (٢٠) :

ومحى الدين بن عربى (المتوفى ١٢٤٠) أعظم عبقرية تفتت عنها التصوف الإسلامى وقد تأثر بكتابه : الفتوحات الملكية ، ومختصره فصوص الحكم - دونس سكوتوس ، وروجر بيكون ، ورايموندو لوليو ، وفلاسفة اليهود من أمثال يحيى بن لاوى ، وموسى بن ميمون . وكان ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين من تلاميذ الغزالي (١١٠٧) قد نشر الأشعرية فى المغرب ، فقامت لها سوق فى صقلية والقيروان وقرطبة .

وعلى الرغم من اقتصار دولة الإسلام في الأندلس على مملكة غرناطة ، ورحيل كثير من أهل الفن والأدب والعلم عنها ، وإهمال المسلمين للغتهم - فقد أنشأ بعضهم المدارس لقراءة القرآن ، وصنف مفتى سيجوفيا (١٤٦٢) كتاب فروض السنة ، ونبغ الشعراء : ابن سعيد المغربي ، وأثير الدين أبي حيان ، والمؤرخان : ابن الخطيب (المتوفى ١٣٧٤) الوزير ومصنف نحو ستين كتاباً سلم منها عشرون أشهرها الإحاطة في تاريخ غرناطة . وابن خلدون (المتوفى ١٤٠٦) أسبق عالم إلى فلسفة الاجتماع ، إذ بينه وبين مونتسكيو مؤلف : روح الشرائع (١٧٤٨) عدة قرون .

والنحوى أبو حيان البربرى الأصل ، وقد ألف في نحو اللغات : الفارسية والتركية والقبطية والحبشية ، والرحالان : العبدري ، وابن رشيد . والرياضيان : ابن البناء ، والرقوطى . وبقيت العربية لغة المعاملات والعقود حتى عام ١٥٨٠ ، واستمر بعض أهل قرى بلنسية يتخاطبون بها إلى أواخر القرن التاسع عشر .

هذا خلا فقهاء الأندلس ومحدثيها وقراءها ، وعدا علماء شمالي أفريقيا الذين اشتهروا فيها من أمثال : الشريف الإدريسي (المتوفى ١١٦٦) الذى ولد في سبتة ، واشتهر في بلاط روجه الثانى ملك صقلية وألف له : زهرة المشتاق فى اختراق الآفاق ، وذيله بتسع وستين خريطة ظلت مرجع جغرافى أوربا طوال ثلاثة قرون ونصف القرن .

وابن سبعين (المتوفى ١٢٧١) العالم المتصوف الذى فر من الأندلس إلى أفريقيا وهو صاحب الرسائل العديدة ، منها : الأجوبة عن الأسئلة الصقلية ، وحسن المراكشى الذى نشر جداول الرياضة فى مراكش (١٢٢٩) ، وظل كتابه شكل القطع مرجعاً مدى مائتى عام . وابن بطوطة (المتوفى ١٣٧٧) الذى ولد فى طنجة ، وقد استغرقت رحلته فى أفريقيا وآسيا والشرق الأقصى خمساً وعشرين سنة ، وأطلق عليها : تحفة النظائر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

فهل قُضِيَ على ذلك التراث الإسلامى بالقضاء على غرناطة ؟ .